كراميل

سأصنعُ (الكراميل) قالتْها ربَّما لثالثٍ أو لرابعٍ مرَّةٍ وفي كلِّ مرَّةٍ لا تجد من يردُّ عليها فتصمتُ، تُلَمْلِمُ صمتَها كتلةً مغلَّفَةً باستفهاماتٍ عدَّةٍ و تتلهى بمتابعةِ الحلَقةِ المُعَادَةِ ربَما للمرَّة العاشرةِ من المسلسل التليفزيونيّ . عادتْ تردّدُ كلمتَها سأصنع لكم (كراميل) فأجابتْها أمُّها مُطْرِقَةً « حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ « بينما راح أبوها ينظرُ إلى ساعتِهِ ويُرْدِفُ قائلاً : حان وقتُ وصولِهم سأنتظرُهُمْ أمام البابِ . خَطَتْ مُسْرِعَةً ،ارتدَت مَرْيَلة المطبخِ وراحتْ تبحثُ عن (حَلَّةٍ) ذاتِ جُدرانٍ عاليةٍ تَحمي يدَيْها من تَقَاذُفِ السَّائِلِ حين يصلُ لدرجةِ الغَلَيَانِ . تَسَمَّعَتْ تحتَ البيتِ هَمْهَمَةَ رجالٍ كُثْرٍ فخفقَ قلبُها حين أدركتْ قدومَهم ووقوفَهم متصايحينَ ومنادينَ أمامَ البابِ. سكَبَتِ السُّكَرَ في الإناء بهدوءٍ ودون أن تضيفَ له شيئاً وضعتْهُ على النَّارِ،بدأَتْ تقلّبُ بملعقتِها الخشبيةِ بينَمَا يتزايدُ خَفْقُ قلبِهَا بأنينٍ مكتومٍ راحتْ ذَرَّاتُ السُّكَرِ تلاعبُها وتراوغُها، تنصهرُ وتتمركزُ ، تنداحُ على سطحِ القاعِ وتَتَمدَّدُ ثم تعودُ وتتلملمُ وكأنَّمَا تُشَاكِسُهَا وعلى حينِ غَفْلَةٍ منها تتجمَّعُ قُرْبَ ناحيةٍ بينما تبحثُ هي عنْهَا وتَتْبَعُهَا ثُمَّ تعاودُ تَفْرِيقَهَا و نشْرِهَا بملعقتِهَا في كافَّة الأرجاء..!

جعلتُ النارَ هادئةً للغايةِ ، ووضعتُ طبقةً من الصَّفِيحِ العَازِلِ تحتَ (الحَلَّةِ) حتى لا تصبحُ ألسنةِ النَّارِ مباشَرَةً فيحترقُ السُّكَرُ. سَمِعْتُ صَوْتَ ارتطامٍ عنيفٍ فأَسْرَعْتُ ووقَفْتُ خَلْفَ النَّافِذَةِ : كان العُمَّالُ يُنْزِلُون الحاجيات التي أرسلها إليها -طليقُها - وعندما حاولوا إدخال فراشِها ارتطمتْ حافتُه في الحائطِ فانشرخ الحائطُ بشرخٍ طولي وسَقَطَ الفِراشُ على الأرض . : حاذرْ.. حاذرْ سمعتُهَا من أبيها وهو يُوصِي العاملَ الَّذي كان ممسكاً ببعضِ الأشياءِ الأخرى ..!

عندها تذكَّرَتْ (الكراميل) فعادتْ مسرعةً بينما إحساسٌ عنيفٌ قد اجتاحها وهى تنظر إلى جسدِهَا صامتاً مستسلماً تماماً لا يُبدي حركةً بجانب ألسنةِ النارفازداد أنينُها حتَّى وصلَ لشاطئِ البُكَاءِ فاستقرَّ مُجْهَداً .. رأَتْ نفسَها وقد تعرَّى جسدُها تماماً حتى مِن وَرَقَةِ التُّوتِ تقفُ أمامَ لظى نارٍ تكويها دونَ هَوَادَةٍ.. ؟؟

ولا تُلقي بالاً لروحِها..!

اجتاحتْها استفهاماتٌ وتملَّكَهَا شَكٌّ قويٌّ وهى تسألُ نفسَهَا أهكذا كان الحبُّ وكانتِ الأُلفةُ هل تسرَّعْتُ في اتخاذ قراري بالانفصالِ عنهُ..؟؟ هل هَدَمْتُ بيتي

ليس لأسبابٍ متعددةٍ ولكنْ لسببٍ واحدٍ فقط وهو تيقُّني بأنه استطاع أن يُحِيلَ جسدي إلى قطعةٍ مطاطيةٍ داكنةِ اللَّوْنِ ؟؟ اِغْمَقَ لونُ السُّكرِ كثيراً فرفعتْ الإناءَ بسرعةٍ عن النارِوصَبَّتْ عليه الماءَ مرَّةً واحدةً فتكلَّسَ وأصبحَ كتلةً صَخْرِيَّةً فاقدةً للمرونةِ راحتْ تَدُقُّ عليها بملعقتِها الخشبيةِ ،تحركُهَا بحركاتٍ دائريةٍ بينما في لحظاتٍ أخرى تضربُ عليها بقوةٍ وعنفٍ حتى ذابَتْ جوانبُهَا تدريجياً وعادَتْ مرَّةً أخرى سائلاً مطاطياً ملتوياً عند القاعِ .. عندئذٍ أضافت إليه ملعقتين من الزُّبْدِ وتركتْهُ ليهدأ . كانت تُحِسُّ بمرورِ الوقتِ أنها فقدَتْ شيئاً ثميناً تودُّ استعادتَه فلا تستطيعُ ، تملكتْهَا مرارةُ واقعٍ يواجهُهَا بأنَّها لا تملكُ جسدَهَا ولا ملابسَهَا ولا حتَّى فِرَاشَها وأنَّها مُجَرَّدُ دميةٍ للَّعِبِ في يَدِ صاحِبَهَا .. تاهتْ في طُرُقَاتِ البحثِ عن مواطنِ بهجتِهَا ورغبتِها معهُ ،و اجتاحَهَا إحساسٌ عارمٌ بأنها لا تملكُ رأسَها ولا شفتَيْهَا ولا حتَّى ساقَيْهَا وأصبح الإذعانُ والطاعةُ وجهَيْنِ لداءٍ أنهكَ جسدَها وأدمى ذاتَها فكيفَ لها أن تعيشَ وهى لا تملكُ ذاتَها وجسَدَهَا ؟؟

حاولتْ كثيراً الاقترابَ منه ،فهمِه ، البحثِ عن لحظتِهمَا المشتركةِ. حاولتْ أن تجعلَهُ يدخلُ عالَمها ورغّبتْهُ في عالمِهَا المنتظِرِلهمْسِهِ وأتعبتْها كثيراً أمنياتُها المَوْؤُودَةُ بأَنْ يبنيَ لها جسراً وطرقاتٍ جانبيةٍ تَظلُّ تخطو وتعدو وتركضُ حتى تصلَ إلي حافَّةِ البحرِ ضاحكةً لاهثةً بينما رذاذُ الموج يُغْرِقُهَا بالشَّوْقِ لكنَّهُ كان لا مبالياً,صَلْداً ، لا وقتَ لديه سوى أن يُعلنَ أمام وجهِهَا بنوداً عِدَّةً لمعاهداتِ الرُّضُوخِ والطاعةِ أوقعتْهَا لامبالاتُه في بئرٍعميقٍ ، في قعره كانتْ تتحركُ فكرةٌ واحدةٌ لا تتلألَأُ إلَّا بدُكْنَةٍ بأنَّها تمارسُ إباحية نَهِمَةً، أجهدتْها كثيراً وأفقدتْها كبرياءَها، وأورثتها وجعاً مسيطراً وتسرَّب حُلمٌ بسيطٌ من يدَيْهَا بأنْ يختارا الوقتَ سويّاً، الحُلْمَ سويّاً ، التَّمَدُّدَ في الفراشِ سوياً وإشعالِ الشموعَ في لحظةِ نَزَقٍ واحدةٍ لكنَّه كان سيدَ الاختيار الأوحد- بلا منازعةٍ «هل تصرّينَ على الطلاقِ لأنه يرغبُك ؟؟ « قالتها في نفسِها كثيراً مثلمَا همسوا بها في أذنها لكنَّها أجابتهم مصرةً وباكيةً : بَلْ أرغبُ في الحفاظ على ذاتي .. فعندما نصلُ إلى النقطةِ الأخيرةِ حيثُ لا تكونُ هناكَ محاولاتٌ ولا فرصٌ أخرى بعدها حيثُ ترسَّخَ بداخلي إحساسٌ بأنَّه يمتهِنُني ، يكسِرُفِيَ إرادتي ، ورغبتي ومواطن بهجتي ويُحيلُ الألوانَ إلى لونٍ داكنٍ لا يصبحُ لدَيَّ اختياراتٌ أخرى ، أنه لا يعي حين يجردني من إرادتي للرفض أو القبول أصبح إحدى أدوات التواطُؤ على نفسي وعندها لابدَّ لي وقبلَ الموتِ بخطوةٍ أن انتصرَلنفسي ....!

سمعتْ صوتَ أبيها مُنادياً : أحضروا الشايَ للعُمَّال فأجابته وهى تمسح دمعةً سائلةً بهدوءٍ على خدِّها التي زادتْهُ السخونةُ احمراراً : حاضر تنهَّدَتْ حين تذكَّرتْ

كَمْ حاضرٍ قالتْهَا لَهُ . كمْ مرَّةٍ لجَّمَتْ فيها جِماحَ رفضها له، كم مرةٍ حاولتْ أن تجعلَه يعيشُ لحظتَهُما معا يصنعانِها سويَّاً ويفرحانِ فيها سويَّاً لكنَّه غيرُ آبِهٍ بَدَأَ يضربُها،ويتَّهِمُهَا بالتمرُّدِ والنُّشُوزِ كانتْ تسألُ نفسَهَا دوماً : كانتْ أحلامي بسيطةً للغايةِ لم أكنْ أريدُ سوى أن أعيش معه.. !

لكنه رفضَ أنْ يتنازلَ طواعيةً عن ذاتِهِ النَّهِمَةِ وأنانيَّتِهِ المفرطةِ و أعلن لها أنْ لا وقت لديه لكل ما تَهذي به ولا يفهمُ كثيراً معنى أن يُخَطِّطَا ليعيشا سوياً فرحَيْنِ داخل جسديهما .. كم كانتْ تَوَدُّ لو ترفرفُ وتحلِّقُ كعصفورٍ في أفقه بين ربوع أحضانه متدثِّرَةً بدقاتِ قلبِهِ وواضعةً صدرَها على هَدْأَةِ بَوْحِهِ لكنَّهُ ما كانَ يريدُ سوى طواعيةِ الصَّلْصَالِ اللَّدِنِ. علا صفيرُ صانعةِ الشَّاي فَفَتَحَتِ الغطاءَ قليلاً وصبَّتِ الماءَ المغليَّ على أوراقِ الشاي جاءَتْها أُمُّها باكيةً لتأخذَ منها (الصينية) وعليها الأكوابُ مضَتِ الأُمُّ صامتةً بينما راحتْ هي تناديها عندما فطِنَتْ أنَّ أمَّها نسيَتْ أنْ تأخذَ معها قطعَ السُّكَرِ عادَتْ إلى ما كانت تصنعُهُ وقد هدأ قليلاً . تذكَّرَتْ أنَها لم تضع (الفانيليا) فبحثَتْ عن العُلْبَةِ الصغيرةِ ،وجدتْهَا مختبئةً في أحد أدراجِ المطبخِ السُّفْلِيَةِ ففتحتْها وراحتْ تتأكَّدُ من مُدَّةِ صلاحيتها للاستعمال . أمسكتْ (حَلَّةَ) السُّكَّروكأنَّها ملاذُها الأخيرُووضعتْها مرَّةً أخرى على النارِثم صبَّتْ عليها ملعقتَيْنِ من النَّشَا ، لبنَ البَوْدَرِ، وبعضاً من الماءِ مرَّةً أُخرى عاوَدَتْ التقليبَ بينما علا صوتُ أبيها وهو يغلقُ البابَ مُوَدِّعَاً العمالَ نزلَتْ إليه لأخذِ الأكوابِ فوجدَتْ واحداً من العُمَّالِ يتسلَّمُ منه بعضَ النقودِ سألتِ الرَّجُلَ عمَّا بيده فحكى لها عن ابنته التي تجيدُ الرَّسْمَ و تُصِرُّعلى أنْ يشتريَ لها الكراساتِ ، وهى غاليةُ الثَّمَنِ كثيراً لكنَّهُ لا يريدُ أن يغضبَهَا وراح يُسْهِبُ في وصفِ رَسْمِ ابنتِهِ للحمَامَاتِ ،والعصافيرِوالسحاباتِ البيضاءِ والشَّمْس . راحَ يُعِدُّ النقودَ التي زادَهُ أبوها إياهُ فَرِحَاً ومُمْتَنَاً وداعياً لها بالفرحِ وبينما أبوها يُغْلِقَ البابَ وبتأكدُ من غلقِهِ جيَّداً كانتْ هي قد غافلتْهُ وراحتْ مسرعةً تبحثُ عن الشراشف الَّتي كانتْ على الفراشِ ونسىَ طليقُها تماماً أن يرسلَهَا إليها - مع بعض الحاجيات.!